تغيير مسار معالجة المعلومات وأثره في التواصل
دراسة في ضوء نظرية الصلة

د. جاسم خيري حيدر مديرية تربية ميسان

Email: Jassimhaidar4@gmail.com

الخلاصة:

يتناول هذا البحث تغيير مسار معالجة المعلومات في الكلام عن المسار الطبيعي الذي يفترض بحسب نظرية الصلة أن يلتزم بتحقيق أقصى أثر معرفي مقابل الجهد الأقل؛ وذلك للوصول للصلة المثلى، وقد ظهر للباحث أنّ ذلك يحدث في بعض المواقف التي تتطلب تحقيق بعض الأغراض البراغماتية التي لا يمكن الوصول إليها لو سلكَ المسار الطبيعي في المعالجة.

حاول البحث أن يستكشف أثر هذا التغيير في مسار المعالجة على التواصل وإن كان بالإمكان أن يهدد استمراره، وقد تبين أنَّ استمرار التواصل هو الأرجح مع توافر عنصر المعلومات الجديدة أو تحديث المعلومات السابقة أو تغييرها، وأكثر الأحوال نجد أنّ هناك تنبيهاً صريحاً من المتكلم بهذا التغيير، ويمكن أيضاً اكتشافه من مسار المحادثة بين الطرفين.

إنّ الأغراض البراغماتية القريبة لتغيير مسار المعالجة تتضمن التنبيه على تغيير جهة الإسناد، وتوسيع المحتوى الضمني، وتحقيق التدرُّج في المعلومات، وخلق التراخي في الخطاب، وتفريغ المحتوى الضمني، ويتعلَّق بهذه الأغراض أغراض أخرى كثيرة.

الكلمات المفتاحية: مسار معالجة المعلومات، نظرية الصلة، الصلة المثلى، التواصل، البراغماتية.

Change the path of information processing and its impact on communication

A study in the light of the theory of relevance

Abstract

This research deals with changing the information processing path in speech from the natural path, which is supposed, according to the theory of relevance, to be committed to achieving the maximum cognitive effect in exchange for the least effort, in order to reach the optimal relevance. It cannot be accessed if the normal path is in process.

The research tried to explore the impact of this change in the processing path on communication and if it could threaten its continuation. It was found that the continuation of communication is more likely with the availability of the element of providing new information or updating or changing previous information, and in most cases, we find that there is an explicit warning from the speaker of this change It can also be detected from the conversation path between the two parties.

The pragmatic purposes close to changing the course of processing include warning of changing the attribution, expanding the implicit content, achieving gradation in information, creating slackness in the discourse, and emptying the implicit content, and many other purposes are related to these purposes.

Keywords: information processing path, relevance theory, optimal relevance, communication , pragmatics.

مقدمة

يفترض بأيّ إجراء للفهم أن يتبع مسارات معينة لمعالجة المعلومات المقدمة، ووفق نظرية الصلة فإنَّ ما يحدد هذا المسار هو أقصى تأثير معرفي مقابل الجهد الأقل للوصول للملاءمة المثلى، بمعنى آخر أنَّ المستمع يتوقع أنَّ الخطاب مقدَّم بالسهولة واليسر اللذين لا يحتاج معهما إلى جهد كبير أو عناء من جانبه في فهمه، وهي سمة تحفظ التواصل وشرط من شروطه المعيارية إن صح التعبير، ولكن يحصل في بعض الحالات أن يحتاج المتكلم لإرسال توصيفات توحي للمستمع بالتغافل عن ذلك وتكليفه جهداً إضافيّاً وكذلك ركوبه الطريق الصعب الوعر في المعالجة من أجل الوصول للفهم وهذا يعني تغيير مسار المعالجة الطبيعي، ويفترض أن يكون ذلك لفائدة أكبر يتوقعها المستمع، فالمستمع يحاول أن يفعل ذلك متوقعاً الحصول على المكافأة.

اخترنا بعض الأمثلة التراثية التي تظهر فيها الخطابات كمثيرات واضحة حددت مسار الخطاب وأدواره وعولجت بشكل مختلف تماماً عن مثيلاتها التي تتطلب عادة اليسر والسهولة سواء من المتكلم أو المستمع، هذه الأمثلة هي خطابات حصل فيها تغيير مسار المعالجة مرة أو أكثر في بعض الأحيان، في إطار البحث عن المعنى، وهي تتضمن في بنيتها المشفرة دلائل تساعد المستمع في توجيه الخطاب وجهة أخرى، واتخذنا من الأفكار الواردة في نظرية الصلة وسيلة للكشف عن أثر هذا النوع من الخطابات؛ فهذه النظرية التي تقوم على الجانب النفسي المعرفي مناسبة تماماً لتناول كل جوانب الاتصال وأظن أنّها من المرونة الكافية التي تسمح بالمقاربة البراغماتية لهذا النوع من المعالجة الذهنية، زيادة على أنّها قدمت وصفتها الصريحة في تناول كل ما يتعلق بالعمليات الذهنية والنفسية التي تفسر عملية الفهم في الإطار الإجرائي للنظرية على وجه التحديد.

تناولنا أولاً بعض الأفكار الأساسية التي ترتكز عليها نظرية الصلة، ووازنّا بينها وبين نظرية غرايس، ثم عرّجنا على مفهوم مسار معالجة المعلومات، وبعدها أنموذج

التحليـل والجانب الإجرائي، ومن ثمّ تناولنا بالتحليـل الأمثلة المختارة التي تضمنت مشكلة البحث والجوانب الإجرائية والتنويه بالوظائف أو الأغراض البراغماتية.

1. نظرية الصلة (relevance theory)

نظريـة الصلة كانت بجهـود كلّ من الباحث الفرنسي دان سـبربر (Dan Sperber) والباحثـة البريطانية ديردر ويلسـون (Deirdre Wilson). وينظر إليها على أنّها رد فعل وتطويـر لنظرية غرايس (Grice) الكلاسـيكية البراغماتية. ووردت الأفكار الرئيسـية لنظريـة الصلـة في الأعمال التـي قدمها الباحثـان في (1986, 1995)، وجرى تحديثها في فـترات متعاقبة. ترتكـز الفكرة المركزيـة في النظرية على نظرة عامة لـلإدراك البشري، وهي أنّ النظام المعرفي البشري يعمل بطريقة تميل إلى زيادة الصلة فيما يتعلق بالاتصال. ومـن ثم، فإنّ المبدأ التواصلي للصلة مسـؤول عن اسـترداد كل مـن المحتوى الصريح والضمني لكلام ما. (Huang, pragmatics, 2007, pp. 181–182)

نقطة البداية لهذه النظرية كانت من افتراضات غرايس بشـأن التواصل اللفظي وأولها أنّ معنى الجملة هو وسـيلة لإيصال معنى المتحـدث، حيث يكون معنى المتحدث هو نية صريحة يعبر عنها وتحقق من خلال التعرف عليها. والثاني هو أنَّ معنى المتحدث لا يمكن إدراكه أو فهمه من خلال فك تشـفيره ببساطة، ولكن يجب الاستدلال عليه من سلوكه، جنبـاً إلى جنب مـع المعلومات السـياقية. والثالث هـو أنَّه عند اسـتنتاج معنى المتحدث، يسترشـد المسـتمع بالتوقع بأنَّ السـلوك التواصلي يجب أن يفي بمعايير معينة بالنسـبة إلى غرايـس، هو مبـدأ تعـاوني (cooperative principle) ومبادئ محادثـة (conversational maxims)، وبالنسـبة لمنظـري الصلة، هو افـتراض الصلة المثـلى (optimal relevance). (Huang, The Oxford Handbook of pragmatics, 2017, p. 79)

تختلـف نظريـة الصلة أيضًـا عن إطار عمل غرايـس في عدة جوانـب مهمة، يتعلق أحدهـا بالمبـادئ البراغماتيـة في الـكلام والفهـم. كان غرايـس مهتـماً بشـكلٍ أسـاسي

بالعوامـل البراغماتيـة التي تؤثر في تحديـد الاسـتلزامات (implicatures)، في حين أنَّ منظـري الصلة يهتمـون بنفس القدر بالعوامل البراغماتية التـي تؤثر في تحديد المحتوى الشرطـي الصريح للحقيقـة (explicit truth–conditional)، وفي إطار عمل غرايس، يمكن للمتصلين أن ينتهكوا بشـكل صارخ هذه المبادئ من أجل توليد الاستلزامات، في حين أنَّ الانتهاك الصارخ للمبادئ أو المبادئ البراغماتية ليس له دور مماثل في نظرية الصلة. (Huang, The Oxford Handbook of pragmatics, 2017, pp. 79– 80)

تقوم النظرية على مبدأين رئيسين هما المبدأ المعرفي للصلة، الذي يتعامل مع الإدراك بشكل عام، والمبدأ التواصلي للصلة، الذي يتعامل مع التواصل الظاهري الاستنتاجي عـلى وجه الخصـوص؛ المبدأ المعـرفي للصلـة (Cognitive, Principle of Relevance) ينص على أنَّه يميل الإدراك البشري إلى أن يكون موجهاً لتحقيق أقصى قدر من الصلة. إنَّه ينص ببساطة على أنَّ عقولنا تميل إلى تخصيص انتباهنا وموارد المعالجة بطريقة تؤدي إلى تحقيـق أكـبر قدر ممكن من التأثـيرات المعرفية الإيجابية لأصغـر جهد معالجة ممكن. أما المبـدأ التواصلي للصلة (Communicative، Principle of Relevance) فينص على أنّـه ينقل كل محفـز ظاهري افتراضاً بصلتـه الخاصة. ويضاف لهذيـن المبدأين افتراض الملاءمـة المثـلى (presumption of optimal relevance) الـذي يعـيِّن صفـات المحفـز الظاهري بالنسبة للمرسل إليه والمتصل؛ فهو ملائم بدرجة كافية بحيث يستحق جهود المرسـل إليه لمعالجته، وهو الأكثر ملاءمة الذي يتوافق مع قدرات المتصل وتفضيلاته. (Clark, 2013, pp. 107–108)

والفكـرة الكامنة وراء افتراض الصلة المثلى هـي أنَّه عندما يحاول فرد ما أن يثير انتباه فـرد آخـر صراحة، يجب أن يعتقد المتصل أنَّ ما ينوي توصيله يسـتحق الجهد المبذول في معالجتـه، وأنه سـيكون ذا صلة بـما يكفي لتبرير الانتباه إلى هـذا الحافز بدلاً من أي شيء آخـر يمكن أن ينتبه إليه المرسـل إليه في ذلك الوقت؛ لأنّ المـوارد المعرفية ثمينة ولا نريد إهدارهـا في الاهتـمام بالظواهر التي لن تكافئنا بتأثـيرات معرفية كافية. يمكن فهم ذلك

بشـكل حدسي من خلال التفكير في المواقف التي يهتم فيها شـخص ما بشيء ما ويخاطبه شـخص آخر. إذا كنتُ أشـاهد برنامجاً تليفزيونياً وتحدَثتَ معي، فلا بد أنَّك تعتقد أنَّ ما يجب أن تخبرني به يستحق اهتمامي أكثر من البرنامج التلفزيوني. (Clark, 2013, p. 108)

2 - **مسار معالجة المعلومات** (Information processing path)

الحديث عن الصلة يتضمن الإشارة إلى التأثيرات المعرفية، وتأتي هذه في ثلاثة أنواع رئيسية: تعزيز الافتراضات الحاليَّة، ومناقضة الافتراضات الحاليَّة وإزالتها، والتضمين السـياقي (contextual implication) الذي يشـتمل على اشـتقاق تأثيرات جديدة من تفاعل الافتراضات الجديدة والحالية؛ وكلما زادت هذه التأثيرات التي يتمتع بها الحافز، زادت صلته، وهذه التأثيرات لا تحصل إلَّا مع وجود جهود في المعالجة، ولذلك يشـير سبيربر وويلسون إلى أنَّه مع تساوي الأشياء الأخرى، كلما زاد الجهد الذهني المتضمن في معالجة الحافز أو الظاهرة من الوصول إلى الافتراضات السياقية واشتقاق التأثيرات المعرفيـة الإيجابيـة، كلما كان هذا المنبـه أو الظاهرة أقل صلة، وفي هـذا الصدد بات من المعـروف أنَّ عـددًا من العوامل تؤثر في جهود المعالجة وهي مدى حداثة الاسـتخدام، وتكرار الاسـتخدام، والبراعة الإدراكية، وسـهولة الاسـترجاع من الذاكرة، والتعقيد اللغوي أو المنطقي وحجم السياق. (Clark, 2013, p. 104)

مـع كثـرة المعلومـات التـي يمكن الحصـول عليها مـن المدخلات لا بـدَّ من تعيين الأولويـة في المعالجـة وما يمكن تأجيلـه أو إهماله، وهنا لا بد من تعيين مسـار معالجة؛ ففـي إطار نظرية الصلة يبدو أنَّ البشر يهدفـون تلقائياً إلى تحقيق أقصى قدر من الصلة، أي التأثير المعرفي الأقصى للحد الأدنى من جهد المعالجة. هذا هو العامل العام الوحيد الذي يحدد مسار معالجة المعلومات البشرية. إنَّه يحدد المعلومات التي يُهتم بها، وأيًّا من افتراضات الخلفية التي تُسـترد من الذاكرة وتستعمل كسياق، والاستنتاجات التي يتم اسـتخلاصها. والذي يظهر أنَّ اهتمامات معينة، عابرة أو طويلة المدى، هي التي توجه

أفكارنـا وتحـدد أهمية المعلومات الجديـدة؛ فبعض الموضوعـات في ذاكرتنا تكون أكثر ثـراءً بالمعلومات، أمَّا بشـكل مؤقت أو دائم، ويسـهل الوصول إليهـا أكثر من غيرها، بحيث تكون المعلومات المتعلقة بـالموضوع من المرجح أن تنتج تأثيراً أكبر مقابل جهد أقل، أي تكون أكثر صلة كما هو محدد. (Sperber & Wilson, 1986, p. 160)

ما ذكرناه فيما سبق هو ما يجب في التواصل النموذجي؛ فقد يحاول المتحدثون جاهدين أو لا يجتهـدون على الإطلاق ليكونوا على صلة بمسـتمعيهم، وقد ينجحون أو يفشـلون؛ وفي كل الأحـوال لا يزالـون ينقلون افتراض الصلة بالموضوع؛ أي أنَّهم ينقلون أنَّهم فعلوا مـا كان ضروريًـا لإنتاج كلام بشـكل ملائم. من مصلحة المسـتمعين أن يقـدم المتحدثون المعلومـات الأكثر صلـة لديهم. ومع ذلك، قـد يكون لدى المتحدثـين أهدافهم المشروعة الخاصة، ونتيجة لذلك قد يختارون تقديم بعض المعلومات الأخرى الأقل صلة بالموضوع. وهنا تبرز مشـكلة أساسـية وهي كيف تسـتحوذ على انتباه المسـتمع؟ لكي تسـتحق انتباه المسـتمع، يجب أن تسـفر هذه المعلومات عن تأثيرات مناسبة على الأقل. من ناحية الجهد، قـد تكـون هناك طرق مختلفة لنقل نفـس المعلومات، وكلها بنفس السـهولة على المتحدث لإنتاجها، ولكنها تتطلب كميات مختلفة من جهد المعالجة من المستمع، فهنا يختار المتحدِّث الصيغة الأسـهل في المعالجة، ويمكن القول هنا أنّه مع تقديم معلومات أقل صلة فمسـار المعالجة ما زال في وضعه الطبيعي. (Sperber & Wilson, 1986, p. 161)

لا يمكـن أن نعـوّل دائمًا عـلى وجـود التواصل النموذجي الذي يشـتمل عـلى التأثير المعـرفي الأقـصى والجهد الأقل واتباع هذا المسـار في المعالجة للوصـول للصلة المثلى؛ ففي بعـض الحـالات يمكن أن ينتـج المتحدث كلاماً به تفسـيران مختلفان أو أكثـر، كل منهما يعطي المسـتوى المتوقع من التأثير المعرفي قد يضع المستمع في جهد إضافي غير مبرر وغير متوقع للاختيار من بينها، والتفسير الناتج إنّ تحققَ لن يرضِ حاجته، وقد يجري تغيير في مسار المعالجة باتجاه صلة بعيدة كما مر ويمكن أن تكون التأثيرات المعرفية ليست بالشكل المطلوب. (Wilson & Sperber, Meaning and relevance, 2012, p. 65)

3. أنموذج التحليل والجانب الإجرائي Analytical model and procedural aspect

في نظريـة الصلـة، يُطبـق إجـراء الفهـم النظري الملائم لحـل القصـور اللغوي على المستويين الصريح والضمني. هدف المستمع هو بناء فرضية بشأن معنى المتحدث تفي بافـتراض الملاءمة الذي ينقلها الكلام. يمكن تقسـيم هذه المهمة الإجمالية إلى عدد من المهام الفرعية:

أ. بنـاء فرضيـة مناسـبة حـول المحتـوى الصريـح (explicatures) مـن خلال فك التشفير، والتوضيح (إزالة الغموض)، والقرار المرجعي، وعمليات الإثراء البراغماتية الأخرى.

ب. بناء فرضية مناسـبة حول الفرضيات السـياقيَّة المقصـودة (المقدمات الضمنية) (implicated premises).

ج. بناء فرضية مناسـبة حول المضامين السياقية المقصودة (الاستنتاجات الضمنية) implicated conclusions). (Wilson & Sperber, Relevance Theory, 2004, p.) (615

ويؤكـد منظـرو النظرية على أنَّه يجب ألاَّ يُنظَر إلى هذه المهـام الفرعية على أنها مرتَّبة بشـكل تسلسلي بمعنى أنَّ المستمع لا يقوم أولاً بفك تشفير النموذج المنطقي، ثم يقوم ببناء المحتوى الصريح وتحديد سياق مناسب، ثم يستخلص مجموعة من الاستنتاجات المتضمنـة. الفهـم هـو عمليـة مسـتمرة، ويتم تطويـر الفرضيـات حـول التصريحات والمقدمات المتضمنة والاسـتنتاجات المتضمنة بشـكل متوازٍ على خلفية التوقعات التي يمكـن مراجعتهـا أو تفصيلها مع ظهـور الـكلام. (Wilson & Sperber, Relevance) (Theory, 2004, p. 615

وبصـورة أكثـر تفصيـلاً يمكـن النظـر أيضـاً في النمـوذج الـذي طـوره موشـلر (Moeschler) بالاعتـماد عـلى النمـوذج السـابق؛ فالإجـراء يجب أن يتنـاول الوصول

للطبقات الآتية: أ. التصريح الأساسي Basic explicature ب. تصريحات عالية المستوى Higher–level explicatures ج. مقدمات ضمنية Implicated premises د. استنتاج ضمني قوي Strongly implicated conclusion د. استنتاج ضمني ضعيف Weakly implicated conclusion. (Moeschler, 2007, p. 86)

4. تغيير مسار المعالجة (Change the processing path)

في الحالات التالية يجري تغيير مسار المعالجة من الصلة الأقرب التي تفترضها الصلة المثلى إلى صلة أبعد؛ وهذا لتحقيق أغراض مختلفة.

أولا: تغيير مسار المعالجة للتنبيه على تغيير جهة الإسناد

في الأمثلة القادمة سنرى أنَّ المستمع يضع المتكلم في وضع يوحي بالحاجة لتغيير مسار المعالجة للوصول لتفسير يرضي توقعات الصلة البعيدة التي تتحقق عن طريق تغيير جهة الإسناد في البنية المشفرة. بمعنى أخر أنَّ الخطاب لا يمكن فهمه إلا بتغيير الإسناد.

في سياق يظهر فيه رجل قادم من جهة حلبة لسباق الخيل، ورجل آخر يريد معرفة الفائز: (الآبي، 2004، صفحة 2/ 72)

(1) أ: من سبق اليوم؟

ب: المقربون

أ: إنما أسألك عن الخيل

ب: وأنا أجيبك عن الخير

فالسؤال في حدود سياق معين (سباق للخيل) يدل عليه الظرف الحالي، ولا يحتاج لمعالجته جهدا كبيراً؛ إذ كل ما هو مطلوب فك شفرة الكلام والوصول للمطلوب وهو تحديد الفائز في السباق، ومن جواب (ب) (المقربون) يبدأ المستمع (أ) أولاً بفك شفرة

السـؤال للتوصل للمعنى الصريح الأساسي، وكما يظهر فإنَّه يحتاج لمعالجة النقص فيه؛ فالكلام (المقربون) تحتاج لمسـند ومن خلال سياق المحادثة يتوصل إلى (سبق المقربون اليوم)، وهذا التصريح الأسـاسي يمكن إثراؤها بمراجعة الخلفية المعرفية وإنَّ المقربين يسـبقون اليوم وغداً وفي كل وقت وهو المستوى الأعلى من التصريح، أو يمكن إثراؤه بالمعنى المعجمي (فاز المقربون)، وهذه العملية استدلالية براغماتية معجمية.

الافـتراض الأول إنَّ كلام (ب) ذو صلـة، وهو يعدّ مقدمة ضمنية ضرورية، وبعد فك التشفير وإكمال النقص يمكن أن تكون هناك مقدمة أخرى وهي إنَّ بعض الأسئلة قد تسـبب الحرج للسـائل أو قـد تكون في غير محلهـا، ومنه يتوصل إلى الاسـتنتاجات الضمنية القوية وهي ليكن سؤالك وطلبك لأبواب الخير، أو لا تنفق وقتك في اللهو، وقد نجد استنتاجات ضمنية ضعيفة من قبيل اسأل غيري عن هذا الأمر، أو ليس لديَّ جواب لسؤالك.

يمكن لنا أن نفهم إنَّ هناك تغييراً في مسار المعالجة الطبيعي وهو البحث عن الصلة القريبـة، ويبقـى أنَّ سرعة الوصول لمسـار جديد ملائم لا تعتمد فقـط على المعلومات السياقية الحالية، فالجواب بمثابة مثير ويحتاج المعالجة من اختبار الفرضيات التفسيرية، وهـو بحاجة لاسـتعمال الذخـيرة المعرفيـة السـابقة أو معلومات تخص المعرفـة بالعالم الخارجي لبناء فرضية تفسيرية لكلام (ب)، ومن المعلومات التي قد تساعد في التفسير وسرعـة الوصـول إنَّ الرجل القادم من الحلبة ليس من أصحاب اللهو ولا يقضي وقته في مراقبة السـباقات ومعرفة أسـماء المشـاركين وغيرها، ومن البنية المشـفرة التي تسند الفوز للصالحين إنَّ المتكلم قد جانب السياق الحالي وخلق سياقا جديداً يمكن اشتقاقه من أحوال الرجل، ففي ثقافة النسك ترك أمور الدنيا والتذكير بالآخرة، ومن واجبات الناسـك أن يذكـر الناس بالصلاح وتذكُّر أمـور الآخرة، وفي هذه الحالـة يمكن له أن يفسر جواب (ب) على وفق هذه المعطيات وهو: المقدمة الضمنية (لا تسـأل ناسـكاً أو رجل دين عن اللهو) والاستنتاج الضمني: (اترك اللهو والعبث فإنَّه وبحسب السؤال

لا يفوز إلَّا المقربون)، زيادة على الضمنيات الأخرى المستنتجة التي قد يستبعد بعضها لضعفها؛ فكما يظهر من البنية المشفرة التي تسند الفوز للمقربين أنَّ المتكلم قد جانب السياق الحالي وخلق سياقاً جديداً يمكن اشتقاقه من أحوال الرجل.

فالمتكلم (ب) (الرجل القادم من الحلبة) إذن كانت له أغراضه الخاصة ولم يقدم المعلومات الأكثر ملاءمة بحسب مبدأ الصلة، وهو أيضاً لم يقدم المعلومات بصورة مبسطة؛ وما يمكن ملاحظته في هذا الصدد أن تقديم المعلومات الأقل صلة تتضمن تجاهلاً للسياق الذي يفرض سلطة السؤال؛ فكما هو معلوم أنَّ السؤال يتضمن سلطة وتقييد في مسارات الحوار وتعيين للمجال الضيق الذي يمكن أن يسلكه الجواب، ولا بدَّ أن يسفر ذلك عن زيادة معرفية حتى يكون مقبولا.

سرعة الوصول لمسار معالجة آخر يقوم على افتراض أنَّ المستمع لديه معلومات تخص المتكلم وأحواله، وتمّ الوصول لتفسير مرض من خلال ثلاثية المتكلم والكلام والسياق ولكن ماذا يحصل لو كان المستمع لا يملك المعلومات الإضافية المتعلقة بالعالم الخارجي التي تساعد في التفسير أو بشكل أكثر وضوحاً هنا نحتاج لمعلومات تخص المستمع، لنفترض أنَّ الرجل غريب وقد اختاره المتكلم مصادفة؛ لأنَّه أول قادم من جهة الحلبة، في هذه الحالة يمكن مراجعة المعلومات السياقية الحالية فقط ومنها الكلام السابق الذي أصبح في الخلفية ومحاولة إيجاد تفسير يرضي الصلة، ويعتمد التوصل لتفسير يرضي الصلة على الإمكانات الذهنية واللغوية وغيرها؛ وهكذا نجد الرجل يعيد التذكير بالسياق و شرط الصلة (إنّما سألتك عن الخيل) لمحاولة اختبار الفرضية التفسيرية التي تخص الاستنتاج الضعيف وهو أنَّ الرجل لم يفهم الجواب أو لا يريد ذلك، وما توضح بالمعالجة والاستنتاج النهائي أنَّه لا يلبي متطلبات السؤال في كل الأحوال حتى مع بذل الجهد الأكبر المتعلق بالصلة من أجل بناء فرضية تفسيرية، وكان الجواب في النهاية (وأنا أجيبك عن الخير)، الذي يفترض جهد معالجة أقل بعد أن كوَّنت الإرساليات السابقة معلومات قريبة يسهل معالجتها؛ لحداثتها وقرب

استعمالها؛ ولهذا يمكن الوصول للمعاني الضمنية الاستنتاجية السابقة بسهولة من الحث على الصلاح وترك اللهو إلى غير ذلك، وفيه الزيادة المعرفية المطلوبة.

يمكن أن نقرر هنا أنَّ الاتصال من هذا النوع وفي بعض الظروف قد يفشل للاعتقاد أنَّ هناك مساساً بالصلة المثلى، وكما ذكرنا فقد يساء فهم المتكلم ونواياه، فمن جهة المتصل الآخر (ب) الذي أرسل الجواب (المقربون) معالجة جملة من الأمور قبل جواب السؤال، واحدة منها بالطبع فك شفرة الكلام، وتطلب الأمر أيضاً معرفة أحوال المتكلم (السائل) حتى يكون الجواب متلائماً مع شرط البساطة في المعالجة، بمعنى آخر كان عليه الاختيار بين جملة من المثيرات والتوصل للأسهل، ثم تحقيق الصلة في النهاية، وهنا الحديث عن السياق الملائم للوعظ والإرشاد وتقبُّل المستمع له، وهذه الأمور هي التي قد تهدد التواصل.

الأمر المهم فيما يتعلق بالمثال السابق أنَّه على الرغم من عدم تقديم معلومات ذات الصلة الأقرب وتغيير مسار المعالجة فيبدو أنَّ الاتصال استمر ولم يواجه مشكلات حقيقية؛ نظراً لتقديم معلومات تتضمن زيادة معرفية يُعتَقد أنَّها تستحق جهود المعالجة الإضافية من المستمع؛ فقد كان على المستمع فقط استحضار سياق جديد والاستعانة بمعلومات الخلفية؛ لتفسير الكلام وسواء توصَّل منذ البداية أو احتاج للمعلومات السياقية الجديدة فإنّ الأمور قد تمضي كما توقع المتكلم للوصول في النهاية للمعنى الذي أراده، وهو يعني أنَّ ذلك حصل في حدود إمكانات وتفضيلات المتكلم، ولم يكن من المتوقع الحصول عليها في السياق الأصلي.

يمكن أن نجد في هذا المثال أنَّ المحتوى الصريح للسؤال في قوله: (من سبق اليوم؟) يتضمن بنية مشفرة استغلها المتكلم (ب) مستعيناً بالخلفية الثقافية والمعرفة العامة؛ فقد أخذ بنظر الاعتبار الذهنية الإسلامية التي تستدعي الكلام القرآني والحديث عن الآخرة؛ ففي غالب الأحوال يميل الناس إلى الدمج بين حياتهم الواقعية والعالم المثالي

الذي يرسمه القرآن الكريم والأحاديث الدينية، إنَّه عالم تظهر فيه بوضوح معالم الجنة والنار والآخرة والصلاح والشر؛ ولهذا ليس بغريب أن تستغل هذه المزيَّة وإعادة تركيب الإسناد في الإجابة وفي الحقيقة إنَّ الذي ساعده هو إنَّ الإرسالية التي تضمنت السؤال فيها ألفاظ تستدعي ما ذكرنا، مثل: (سبق) وعدم التقييد المطلق؛ فمثلا كان يمكن أن يقول: (من سبق اليوم من المتسابقين في الحلبة؟) أو القول: (من سبق اليوم من الخيل؟)، ولكن بالطبع سيتطلب الأمر جهد معالجة أكبر، فكان الإيجاز والاتكال على السياق هو الفيصل، وما حصل من تجاهل للصلة القريبة متعمد لاعتقاد المتكلم أنَّ هناك زيادة معرفية تستحق الجهد من المستمع كما ذكرنا.

ثانيًا: تغيير مسار المعالجة لتوسيع المحتوى المتضمن

قد يعمد المتكلم إلى الإتيان بخطاب ضمن الحدود المشفرة للجملة بتغيير جهة الإسناد؛ لغرض إضافة معلومات جديدة أو التنبيه على أمر أو التذكير به كما رأينا في الأمثلة السابقة، وقد يعمد إلى توسيع المحتوى المتضمن بوسائل تشتمل على الاستعمال المجازي (الكناية) مثلاً كما في المثال الآتي.

في سياق الحديث بين رجلين عن شخص ثالث» بخيل».

(3) أ: من يحضر مائدة فلان؟ (التوحيدي، 1988، الصفحات 7 / 41 – 42)

ب: الملائكة.

أ: لم أرد ذلك. من يواكله؟

ب: الذباب.

جواب (ب) يتطلب فك شفرته واستكمال النقص في المحتوى الصريح، ويمكن للمستمع من الإرسالية السابقة والسياق التوصّل إلى المسند فيكون التصريح (يحضر الملائكة مائدة فلان)، وهو تصريح أساس وقد يمكن إغناؤه أكثر بتصريحات أعلى في

حال توافرها إن قُصد إيصالها، ومن هذا التصريح والسياق يتوصل للمقدمة الضمنية وهي أنَّ بعض المخلوقات الغيبية قد تحضر في أماكن معينة، وهي معلومة تستنبط من الخلفية المعرفية، وكذلك أنَّه إذا كانت فقط الملائكة تحضر مائدته فيعني هذا أنّه لا يحضرها البشر، ومنه يتوصل للاستنتاج الضمني القوي وهو أنَّه رجل مبارك، وكذلك الاستنتاج أنَّه رجل بخيل، وهو ما يعني أنَّ المستمع قد وضِع في موقف فيه استنتاجين متضادين أو كلاهما قوي ويجب عليه أن يختار بينهما، والأمر يحتاج منه تغيير مسار المعالجة وهذا يحتاج لجهد معالجة إضافي غير مبرر، وعليه فإنَّه قد اختار أن يوجه إرسالية يكون جوابها كفيلاً بالوصول للاستنتاج.

الإرسالية هي (من يواكله؟) والتي كان جوابها من (ب) (الذباب)، والتي أيضاً تحتاج لاستكمال المحتوى الصريح (يواكله الذباب)، ومنها يتوصل للمقدمة الضمنية أنَّه لا يأكل معه بشر، أو يأكل معه من لا يلاحظ أو من يختلس الأكل اختلاساً أو الكائنات التي لا يمكن دفعها فقط، ومن ثم للاستنتاج الضمني القوي وهو أنَّه بخيل، وفي بعض السياقات قد يكون هذا الجواب مقدمة للتوصل إلى أنَّه رجل قذر أو لا يهتم بنظافة المأكول، ولكن هنا لوجود الكلام السابق يتعين هذا الاستنتاج.

يمكن من جهة أخرى أن نرى أنّ تغيير مسار المعالجة من المستمع يتعلق بجزء منه بطبيعة الكلام المشفر السابق؛ فاستعمال (أ) هو استعمال يساعد على توسيع المضمون، وما يساعد هو البنية المشفرة غير المقيدة للسؤال واستدعاء المعلومات الخلفية بفعل الإيحاء للفظ (يحضر)؛ فبنظر الفكر الإسلامي الذي يؤمن حقّا بحضور الغيبيات ومنها الملائكة يكون واضحاً أنَّ المتكلم لم يبتعد كثيراً عن البنية المشفرة، فقوله (من يحضر مائدة فلان؟) لم تقيد سوى العاقل من الحضور باستعمال الركيزة المعجمية (من) التي تستعمل نحويّاً للسؤال عن العاقل، ولا شك أنَّ الملائكة هي كائنات عاقلة، ولكن في جواب (من يواكله؟)، وهو قوله: (الذباب)، يكون جواب مغالطة لا شك؛ لأنَّه لا يقع ضمن حدود السؤال عن العاقل؛ وإن كان في الحقيقة يمس جانباً من المحتوى

القضوي وهو (الأكل)، ولهذا يمكن أن يظهر للمستمع أنَّ المتكلم (ب) قد استعمل الصلة البعيدة؛ لتحقيق أغراضه الخاصة بعد مراجعة الفرضيات السياقية الحديثة.

إنَّ الوصول للاستنتاج الضمني وهو الكناية عن البخل، احتاجَ لتغيير مسار المعالجة كما ذكرنا وجهد إضافي، بمجرد فك شفرة الكلام والتأكد أنَّ الكلام يحتاج للبحث عن صلة بعيدة عن مضمون السؤال، ويعتمد مقدار الجهد وفي الحقيقة على الخزين المعرفي السابق؛ فهذه الكناية شائعة في التراث الإسلامي وأصبحت بمثابة المحتوى الحرفي؛ فيمكن فك شفرتها دون الحاجة لاستدلالات كثيرة، ولكن هذا يعتمد على إمكانات المستمع التي يفترض أن يراعيها المتكلم.

فيما سبق تبين لنا أنَّ وضع المستمع في موقف كان عليه فيه أن يختار من بين عدة خيارات تفسيرية، ولم يكن من المؤكد أيُّها هو التفسير المناسب بالاستناد إلى الجهد الأقل، كان الفشل في الوصول أول مرة أو بعد الإرسالية الأولى ظاهرا، وكان عليه الحصول على معلومة جديدة اتضح أنَّها ذات صلة بعيدة وتحتاج لجهد معالجة كبير أيضاً.

ثالثًا: تغيير مسار المعالجة لخلق التدرج

في سياق يضم وزيراً (يحيى بن خالد البرمكي) وابنه ومؤدبه وبعض الكُتَّاب في عهد الدولة العباسية. (الشرواني، 1906، صفحة 43)

(4) يحيى: ما حال ابني هذ؟

الكُتَّاب: قد بلغ من الأدب كذا وكذا.

يحيى: ليس عن هذا سألت، وإنَّما سألت عن بُعد همَّته.

الكُتَّاب: اتخذنا له من الضياع كذا وكذا.

يحيى: ليس عن هذا سألت، وإنَّما سألت عن بُعد همَّته، هل حببتموه إلى الناس؟

الكُتَّاب: لا

يحيى: فبئس الأصحاب أنتم، هو والله إلى هذا أحوج منه إلى ما قلتم.

في الإرسالية الثالثة يبدو واضحاً وجود طلب بتغيير مسار المعالجة في قوله (إنّما سألت عن بُعد همَّته)، فهنا محتوى صريح يحتاج للإثراء أو إكمال النقص من تعيين مرجع الضمائر الواردة، ومنه نتوصل مع السياق للمقدمة الضمنية أنَّ هناك مشكلة في الجواب السابق، ومنه نتوصل للاستنتاج الضمني وهو أنَّ الجواب غير مرض، ووجود طلب بالبحث عن تفسير آخر وهو الاستنتاج الأقوى، ويمكن أن يكون الاستنتاج الضعيف أنّه يريد أن يختبرهم أو أن يعرف مدى إلمامهم بكل الأمور، وأنَّه قد يسبب مشكلة لهم.

في هذا المثال استعمل المتكلم أيضاً كلاماً غير مقيَّد بصورة واضحة (ما حال ابني؟) فالسؤال عن الحال هو سؤال مطلق كما يظهر في شفرة الكلام عام؛ ولذلك يحتاج المستمع أن يفسره في ضوء الصلة، يتضمن (الحال) السؤال عن صحة الإنسان وعن أحواله المعيشية وعن حزنه وفرحه إلى غير ذلك، ويتضمن السؤال أيضاً الأحوال الدراسية وهي الأقرب صلة؛ فالمكان هو مكان للتعلُّم وفيه حضر المؤدب والكُتَّاب فلا يمكن وفق مبدأ الصلة توقع غير هذا، ولذلك كان جواب الكُتَّاب بعد فك شفرة الكلام ومعاينة السياق: (بلغ من الأدب كذا وكذا)، ولكن يحيى يفاجئهم برفض هذا الجواب، ويؤكد أنَّه أراد (بُعد همَّته)، وهنا توجيه لتغيير مسار المعالجة؛ فهو أيضاً يحتاج لفك شفرته مع استبعاد بعض عوامل السياق والفرضيات التفسيرية والبحث بعدها عن الصلة المثلى في ضوء الجهد الأقل؛ ولكن المشكل هنا أنَّه كلام غامض غير محدد يشمل القوة والشجاعة والحركة واتخاذ ما يلزم من شؤون الحياة التي تتضمن اتخاذ الدور والمسكن، ويبدو هذا هو الأقرب للسياق والصلة؛ لأنّ المسؤول عنه ابن وزير زمن العادة أن تكون الهمة في اتخاذ الدور، ولكنه أيضاٌ يرفض الجواب، ويفسر بُعد الهمَّة بالتقرب للناس والوصول إلى محبتهم.

يبدو تفسير (بُعد الهمَّة) بالتقرب إلى الناس بعيداً عن الصلة المثلى؛ التي تفترض التفسير الأقرب للملائمة بأقل جهد، ويمكن الجزم أنَّهم من المستحيل أن يصلوا إليها بوساطة الاستدلال، فلا الشفرة اللغوية منذ الإرسالية الأولى تتضمن هذه المعلومة ولا الفرضيات السياقية التي جرى تجاهلها تضمن ذلك، ومع ذلك جرى تقبُّل الجواب واستمرار التواصل، فالتدرُّج في التضمين واستغلال الغموض المركب يساعد في تنشيط الجهاز المعرفي وإضافة معلومات جديدة أو زيادة في المعرفة؛ فالسؤال عن الحال يتضمن السؤال عن بُعد الهمَّة وهو التفسير الأقرب ثم بُعد الهمَّة يتضمن التفسير الأقرب وهو التقرُّب للناس وكسب ودهم، وبالطبع هذا في سياق تعامل المؤدبين مع من يؤدبونهم من أبناء الملوك أو الوزراء، ومن هذا التدرج يمكن أن يصل المستمع لبعض الفرضيات التفسيرية التي تمثل استنتاجات ومن ذلك أنَّ مسار التعليم غير وافٍ، وأنَّهم يجب أن ينتبهوا لما هو أهم في هذا المجال ثم قد يدل على قصور علمهم بسياسة الملوك والوزراء.

رابعًا: تغيير مسار المعالجة لخلق التراخي في الخطاب

يمكن أن نجد أمثلة أخرى يعمد فيها المتكلم لتحقيق وظائف تداولية تتضمن إظهار الشخصية أو المهارة والقدرة العقلية أو النباهة، ولا يكون ذلك إلَّا من خلال خلق التراخي (slackness) أو ما يسمى بالكلام الفضفاض (loose talk)، وهو الذي لا تكون فيه العبارة خاطئة، ولكنها غير دقيقة بما يكفي بحيث لا يكون من الواضح ما إذا كانت صحيحة تماماً، بالمعنى الحرفي للكلمة، أو بمعنى آخر تكون صحيحة في بعض السياقات وخاطئة في أخرى. (Allott, 2010, p. 113)

ومن ذلك سياق كلام (الحجاج بن يوسف الثقفي) (قائد ووال في العهد الأموي) مع رجل. (المعافى، 2005، صفحة 207).

(5) الحجاج: ممن الرجل؟

الرجل: من المسلمين

الحجاج: ليس عن هذا سألتك، وإنما سألتك عن البلد

الرجل: من أهل اليمن

الحجاج: كيف تركتَ محمد بن يوسف؟ (للتوضيح الحجاج يسأل عن أخيه والي اليمن)

الرجل: تركته عظيماً جسيماً خرّاجاً ولاجاً

الحجاج: ليس عن هذا سألتك، إنَّما سألتك عن سيرته

الرجل: تركته ظلوماً غشوماً مطيعاً للمخلوق عاصياً للخالق

الكلام التصريحي في قوله (من المسلمين) يحتاج من المستمع لإتمام النقص وبمراجعة السياق يكون الكلام (أنا من المسلمين)، وهو كلام فضفاض عام ومع ذلك يحمل الصلة كمقدمة افتراضية وإن كانت صلة بعيدة، والمقدمة الضمنية الأخرى هي أنَّ بعض الناس يجيبون بالعموم عند السؤال عن القبيلة أو المكان لأغراض خاصة من مثل تجنب المشكلات، والاستنتاج الضمني أنَّه من عامة الناس أو ممن لا يُعبأ به أو لا فائدة من التصريح بالقبيلة أو المكان.

السؤال من الحجاج في قوله: (ممن الرجل؟)، وهو سؤال قد تكون إجابته بتعيين القبيلة أو البلد أو المكان أو أي شيء مواز، وهو على الرغم مما فيه من عدم تقييد يمكن أن يكون السياق كفيلاً ببيان المطلوب منه، على اعتبار أنّ (ممّن) الركيزة المعجمية تستعمل للسؤال عن هذه الأشياء مع تقدير الحذف كأن يكون (من أي قبيلة) أو (من أي بلد؟) وهكذا، و لكن ليس من الإجابات المحتملة أن يكون الجواب (من المسلمين) وهو ما أجاب به الرجل؛ لأنّ هذا الجواب عام بديهي معلوم لا يحقق شيئاً، وهو جواب فضفاض فكل الناس في هذه الأرجاء هم مسلمون أو أغلبيتهم، وعلى

وفق معلومات تمييز الكلام الفضفاض هي صحيحة ولكن ليست دقيقة بدرجة كافية.

وفي السؤال الآخر (كيف تركت محمد بن يوسف؟) ذكر الحجاج الاسم كاملا ربما لتوقع أن يجيب الرجل بإجابة فضفاضة عن أي رجل اسمه محمد، ثم إنَّ الشفرة اللغوية (محمد بن يوسف) تتضمن السؤال عن الأخ وقد تتضمن تداوليّاً مطلب التلطف في الجواب خاصة أنَّ السياق يظهر أنَّه بحضور جمهور كبير من الناس، ويلاحظ أنَّ لفظة (تركت) في كلام السائل عامة غير محددة تتضمن كل الأوصاف وكل الأحوال، ويفترض أن يبحث السامع عن أقرب تفسير يحقق الصلة التي تتعلق بهذا المحتوى، وبعد إتمام النقص وتعيين المراجع يتوصل للاستنتاج المتضمن وهو أنَّه يسأل عن أخيه وهو أمير فقد يكون أراد معرفة أحواله (سيرته) من جهة السياسة والتدبير وما يتعلق بهذه الأمور، ولكن كانت الإجابة أيضاً بالكلام الفضفاض الذي يصف أحول المسؤول عنه غير المهمة؛ فلا يتوقع أحد أن نسأل عن حال الرجل من جهة كونه هزيل الجسم أو مملوءً (عظيماً جسيماً)، أو نسأل عن حركته الطبيعية من الدخول والخروج (خراجّاً ولاجّاً) وهي في العربية صيغة مبالغة استعملها الرجل لوصف المسؤول عنه بأنَّه كثير الخروج والدخول من مكان لآخر وهي تعني تغيير في مسار المعالجة الطبيعية التي توصل للصلة المثلى، ليوصل استنتاج ضمني أنَّه لا يعلم من شؤونه غير الظاهر؛ فليس هو ممن يراقب أعماله أو ذو معرفة بتفاصيل أكثر دقة؛ وقد توصل استنتاجاً ضعيفاً أنَّ هذا الأمير لا يقرب الناس ولذلك يراقبونه من بعيد وأنّه كثير الحركة في تحقيق مآربه الخاصة.

ومع أنَّنا نجد الرجل بعد ذلك يجيب بجواب في حدود الصلة القريبة، فقد كانت أجوبته الأولى تتجاهل الفرضيات التفسيرية ولا تحقق المعرفة المطلوبة أو تحقق زيادة في المعرفة التي تفترض في حال استعمال الصلة البعيدة، ولا يمكن أن تكون هذه الإجابات الفضفاضة لغرض حماية النفس أو دفع مكروه؛ فما بعدها إجابات غاية في الصراحة وهي تثبت أنَّ الغرض من استعمال الجواب المتراخي والصلة البعيدة هو

لإظهار الشـخصية والقدرة العقلية وهي أغراض غاية في الشخصية لا تخدم التواصل على المدى البعيد.

لا يتضح في الحقيقة إذا ما فشـلت جهود المعالجة في الوصول إلى تفسير يحقق الصلة المثـلى لقولـه (مـن النـاس) أو (خرّاجاً ولاجـاً)، بعد اتباع مسـار الجهد الأقـل، أو إنَّ المسـتمع (الحجاج)، ليس لديه خيار في اسـتعمال موارده المعرفية لاستكشـاف صلة ما ولـو بعيدة لهذا الجواب، سـواء نجح أم لم ينجح؟ وإلى أي مدى اسـتمر في المعالجة، في كل الأحـوال لم تحقق هـذه الأجوبة التي احتاجت لجهد معالجة كبـير المعرفة المطلوبة؛ ولذلك صرح بغيرها.

خامسًا: تغيير مسار المعالجة لتفريغ المحتوى الضمني

في الأمثلة السـابقة رأينا كيف اسـتغل المسـتمع بعض مكونات البنية المشفرة لتغيير مسـار المعالجـة وهنا مثال مشـابه غـير أنَّه تجاهل للسـياق الحالي بصـورة أكثر وضوحاً والتعلق بالحرفية وهو ما يعني تفريغ المحتوى الضمني أو المحاولة على الأقل.

في سـياق محـاورة بين «بـلال» (مؤذن الرسـول «ص») ورجـل أراد أن يكذبه؛ أي يجعله يكذب. (الجاحظ، 2002، صفحة 3/ 310)

(6) الرجل: ما سنُّ فرسك؟

بلال: عظم

الرجل: كيف جريهُ؟

بلال: يحضر ما استطاع

الرجل: فأين تنزل؟

بلال: موضعا أضع فيه رجلي

الإرسالية الأولى (ما سنُّ فرسك؟) فيها المحتوى الصريح تام، ولا يحتاج إلَّا تعيين

مرجعيـة الضمـير، ولا تتوافـر لدينـا معلومات لإغنـاء المحتوى الصريـح بمعلومات أكثر، والمقدمة الافتراضية لهذا الخطاب أنَّه من النادر السؤال عن سنّ الفرس، وأنَّه من الأجوبـة في الغالـب تكون تقريبية أو فضفاضة، وقد تكون هنـاك فرضية تتعلق بتوقع اختبـار أحدهـم للصدق، والاسـتنتاجات الضمنية هي أنَّه أراد الاختبـار، أو المفاكهة والملاطفـة، وهناك اسـتنتاج ضعيف أنَّ الـكلام يتضمن الاسـتهزاء أو الخداع، ونجد أنَّ الجـواب مـن «بـلال» (عظم) يحتـاج لإتمام محتواه الصريح (سـنّه عظـم)، والمقدمة الافتراضية للخطاب هي أنَّه ربما تنبه لمحاولة الاختبار، أو حين يكون السـؤال في غير محلـه أو يفتقـر للجدية يكون الجـواب كذلك، والاسـتنتاج المتضمن أجيبك بحسـب الظاهر لا المضمون، أو لن تحصل على ما تريد.

الأسـئلة التـي وجههـا الرجل بـذكاء هي لاختبـار فرضية عدم كـذب «بلال» منذ دخوله الإسـلام وما شـيع عنه من تحري الصدق، وقد اختيرت على أن تكون إجاباتها وفـق التقريـب أو التراخـي، فجواب السـؤال الأول عن سـن الفرس سـيكون تحديد عمـر تقريبي في الغالب أو عن طريق التراخي بتمثيل شيء مقارب؛ فليس أعمار الجياد والخيـول ممـا اعتاد الناس على حسـابه بدقة كما اعتادوا على حسـاب أعـمار البشر، هذا لو سـلك في جوابـه الصلة المثلى وتحقيق الأثـر المعرفي بأقل جهد ممكـن، وهذا الجانب يتضمـن الكذب حرفيّـاً كما نوهنا من قبـل بخصوص التراخي، والسـؤال عن الجري أو سرعـة الفرس سـيكون بالتقريب أيضـاً أو التراخي في كل الأحـوال، ففي الغالب اعتاد الناس على المبالغة في هذا الشأن والمبالغة فيها طرف من الكذب، وأمَّا الإرسالية المتعلقـة بمـكان النزول فتتضمن الغموض؛ فاللفظ قد يشـير لمـكان الإقامة أو النزول المؤقت وجوابه قد يشكل عليه.

في الإرساليتين الأخيريتين من طرف «بلال» استعمل فيهما ما يسمى (الطوطولوجيا) (tautology)، وهـي عبـارات مـدورة تقيَّـم دائماً بالصـواب مهما كانـت المتغيرات أو المزاعم. (Murphy & Anu , 2010, p. 160)

في قوله: (يحضر ما استطاع)، في جواب السؤال عن السرعة أو الجري؛ فهو يحضر بمعنى «يسرع» ما استطاع؛ أي (يُسرع كلما استطاع، أو عندما يستطيع)، وكذلك الجواب: (موضعاً أضع فيه رجلي) في جواب مكان النزول، وهو يعني (أنزل في موضع تستقر فيه رجلي، وتستقر رجلي في موضع أنزل فيه).

ومن هنا كان على «بلال» ترك المسار الطبيعي للمعالجة الذي يوصل للصلة المثلى والتوجه للمعنى الحرفي أو الشفرة اللغوية وترك المضمون، ويبدو أنَّ سياق المفاكهة وعدم الجدية؛ لكون السؤال في أصله يفتقر لمضمون حقيقي جعل الرجل لا يطالب بجواب آخر، وإلَّا فإنَّه في مواقف أخرى تكون هذه الأجوبة المفرغة من المحتوى أو تستجيب لظاهر الكلام سبباً لمشكلات في التواصل ويطالب المتواصل بجواب آخر، وهو يحتاج لبحث منفصل.

يمكن أنَّ نرى هنا أنَّ تغيير مسار المعالجة حصل بعد تلقي السؤال من طرف «بلال» وكذلك حصل من الطرف الآخر» الرجل» بعد تلقيه للجواب (سنّهُ عظم)، فالمسار الطبيعي أنَّه يبحث عن الصلة القريبة من مضمون السؤال الذي طرحه هو في الأصل، وعندما لم يجدها فإنَّه يبحث عن أي صلة أخرى، وهنا قد يتوصل لوجود اشتراك لفظي بين لفظي (سن) التي يراد بها العمر، و (سن) التي يراد بها ما في فم الفرس من أسنان، وهو ما استغله» بلال»، وتغيير مسار المعالجة لا شك يحتاج لجهد معالجة كبير.

في هذا المثال أيضاً يجري تجاهل الصلة الأقرب والتحول نحو صلة بعيدة بالاستناد إلى المحتوى الحرفي الذي يتعلق به المتكلم موهماً أنَّه في حدود مطالب السائل أو هذا ما فهمه، ولكن عند التفتيش نجد أنَّ هذه الإجابات مفرغة لا تقدِّم معلومات ولا تزيد المحتوى المعرفي فهي بديهيات لا تحتاج للذكر هنا، بمعنى آخر إنَّ الأجوبة هي صادقة حرفيّاً وهي ملائمة للسؤال من هذه الناحية ولكنها لا تأخذ بنظر الاعتبار المضمون الذي يظهر في بنية الكلام السابق.

إنَّ مـا يتحقق من اسـتعمال الصلـة الأبعد أو في الحقيقة تجاهل للمعطيات السـياقية الحاليـة أو تغيـير مسـار المعالجة؛ بعـد تجاهل أقصى قدر مـن المعرفة قد يكـون لإظهار الشـخصية أو القدرة العقليـة، وهذا المثال الأخير هو مثال عـلى تجنب مغالطة الطرف الآخر أو تجنب المضمون الذي يحمله كلام المتصل.

الخلاصة (Conclusion)

هـذه بعـض النتائج التي ظهـرت لدينا بعد استكشـاف هذه الأمثلـة التي تضمنت تغييراً في مسار المعالجة:

1 – يتوقع المتصل أن يكون الخطاب وفق شروط الصلة المثلى ويسـتمر في التواصل ومحاولـة معالجة المعلومات في مسـارها الطبيعـي من أجل ألَّا يهدر مـوارد المعالجة الثمينـة ويكلف نفسـه جهداً إضافيّاً منذ البداية؛ ولهـذا يحاول في بعض الأحيان أن ينبه شريك التواصل على أنَّ خطابه ليس ذو صلة أو لا يلبي متطلبات الصلة المثلى.

2 – في بعض الأحيان يحاول المتصل أن يحصل على معلومات إضافية عندما يبدو أنَّ مسار المعالجة الطبيعي لا يلبي مطلب الصلة المثلى من أجل بناء فرضية تفسيرية وقد يوفـق في ذلـك فتكون بمثابة معلومـات خلفية حديثة يسـهل معالجتها وضمها إلى قرينتهـا البعيدة ويمكن بهذا توفير جهود المعالجـة، وقد لا يكون ذلك ممكناً فتكون المعلومات الجديدة بمثابة عبئ جديد يضاف لما سبق ويحتاج لمعالجة أكبر وفي النهاية لن يحصل على التأثيرات المعرفة المطلوبة.

3 – في أكثـر الأحـوال ليس أمام المتصل خيار في بذل جهد إضافي عند تغيير مسـار معالجة المعلومات، وقد يسهِّل الأمر وجود تنبيه صريح من الطرف الآخر بوجوب تغيير مسـار المعالجـة، أو يتنبه من المضمـون على حصول ذلك، وبهـذا فهو يتوقف عـن المعالجـة عندما يصل لتفسـير يـرضي شروط الصلة القريبـة، أو عندما يرى أنَّ المعلومـات التـي تحيط بالتواصل غير كافية ولا يمكـن بحال أن يوفق في الوصول؛

ولهذا أمامه طريق طلب معلومات رديفة للخطاب تفسّره أو يلجأ للتجاهل.

4 – تغيير مسار المعالجة باتجاه الصلة الأبعد هو الآلية المتبعة؛ لتحقيق بعض الأغراض البراغماتية، واحتاج الأمر إلى جهد معالجة أكبر من كلا الطرفين، ويبدو أن تزويد المستمع بمعلومات معرفية جديدة هو الذي حافظ على التواصل، وكان يمكن أن يُساء فهم المتكلم الذي يعالج المعلومات لمصلحته الشخصية دون الالتفات لهدر موارد المعالجة من المستمع.

5 – تغيير مسار معالجة المعلومات يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار الجهد المبذول في المعالجة، ووقت المعالجة والسياق الملائم؛ ولهذا فهو عملية على الرغم من شيوعها تعدُّ خطيرة على التواصل، وقد يتحول الخطاب إلى عبارات مشفرة مفرغة من جهة المضمون ولا تحقق شيئاً خاصة مع أرجحية الميل باتجاه المسار الطبيعي في المعالجة الذي يتضمن السهولة.

6 – يمكن اللجوء لتغيير مسار المعالجة لتلافي بعض المواقف المحرجة وتجاوز تضييق الطرف الآخر لمجرى الحوار؛ فهو بمثابة فسحة تسمح ببعض المناورة وتعطي انطباعًا بالتحكم بالخطاب والميل به لصالح المتكلم.

المراجع

أ- باللغة العربية

• أبو الفرج المعافى. (2005). الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

• أبو حيان التوحيدي. (1988). البصائر والذخائر. دار صادر، بيروت، لبنان.

• أحمد بن محمد الشرواني. (1906). نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن. مطبعة التقدم العلمية، مصر.

• عمرو بن بحر الجاحظ. (2002). البيان والتبيين. دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان.

• منصور بن الحسين الآبي. (2004). نثر الدر في المحاضرات. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ب- باللغة الإنكليزية

• Allott, N. (2010). Key terms in pragmatics. London and New York, NY: Continuum.

• Clark, B. (2013). Relevance Theory. New York: Cambridge University Press.

• Huang, y. (2007). pragmatics. Oxford: Oxford University press.

• Huang, y. (2017). The Oxford Handbook of pragmatics. Oxford: Oxford University press.

• Moeschler, J. (2007). The role of explicature in communication and intercultural communication. In Kecskes, I. & L. Horn (eds.) Explorations in Pragmatics: Linguistic, Cognitive and Intercultural Aspects. Berlin /New York: Mouton de Gruyter: 73– 94.

• Murphy, M., & Anu , K. (2010). Key Terms in Semantics. London /New York: Continuum.

• Sperber, D., & Wilson, D. (1986). Loose talk. Proceedings of the Aristotelian Society 86, pp. 153– 171.

• Wilson, D., & Sperber, D. (2004). Relevance Theory. in Horn, Laurance and Ward, Gergory (eds.). The Handbook of Pragmatics. Pp, 607– 633. Malden, USA: Blackwell Publishing.

• Wilson, D., & Sperber, D. (2012). Meaning and relevance. Cmpridge: Cambridge University Press.